

إشكالية تحويل القيم الإيمانية الفردية إلى قيم اجتماعية من منظور مالك بن نبي

The problem of converting individual faith values into social values from Malek Bennabi's perspective

نورالدين ميهوبي *

مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (الجزائر)، nou.mihoubi@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022 /09/13 تاريخ القبول: 2022 /10/18 تاريخ النشر: 2022/12/03

الملخص:

إن التساؤل المركزي لفكر مالك بن نبي يبحث عن سبب الفاعلية الاجتماعية للإسلام في المجتمع الإسلامي الأول، أي مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم، وعدم فاعلية الإسلام اجتماعياً في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة. لذا نجده يذكر فكرة "الإسلام الاجتماعي" و"دور الدين الاجتماعي". والشيء الذي لاحظته بن نبي في هذا الإطار هو الانفصال بين العنصر الروحي والعنصر الاجتماعي، أو الافتراق بين المبدأ والحياة، والذي يتجسد في المفارقة بين المسلم داخل المسجد وخارجه. ففي المسجد يتأثر المسلم بالجو الإيماني وترتقي روحه للمثل والمبادئ العليا، ولكن بعد خروجه من المسجد ينتقل لحالة أخرى ويترك خلفه القيم الإيمانية. فبدلاً من أن يؤثر المؤمن في محيطه الاجتماعي وفقاً لقيمه، نجد أن المحيط الاجتماعي هو الذي يؤثر فيه ويسلبه هذه القيم. يرى بن نبي أن إعادة جمع القيم الإيمانية والسلوك الاجتماعي للمسلم المعاصر تستلزم شرطين: الأول هو إعادة تنظيم تعليم القرآن الكريم، والثاني هو تحديد رسالة المسلم الجديدة في العالم.

الكلمات المفتاحية: القيم الإيمانية ؛ القيم الاجتماعية ؛ مالك بن نبي

Abstract:

The central question of Malek Bennabi's thought searches for the reason for the social effectiveness of Islam in the first Islamic society, and the social ineffectiveness of Islam in contemporary Islamic societies. For this reason, we find him mentioning the idea of "social Islam" and "the social role of religion". Bennabi noticed the separation between the spiritual element and the social element, which is embodied in the paradox between the Muslim inside and outside the mosque. In the mosque, the Muslim is affected by the atmosphere of faith, but after leaving the mosque, he leaves behind the values of faith. Bennabi believes that re-assembling the faith values and social behavior of the contemporary muslim requires two conditions: the first is to reorganize the teaching of the Holy Qur'an, and the second is to define the new Muslim message in the world.

Keywords: faith values, societal values, Malek Bennabi.

مقدمة:

قد يستغرب بعض القراء لكتب مالك بن نبي تحلل رواية في إنتاجه الفكري¹، وهي رواية "ليك حج الفقراء، 1948"، خاصتاً وأنها جاءت بين كتاب "الظاهرة القرآنية، 1947" وكتاب "شروط النهضة، 1949"؛ الكتابين اللذين أظهرهما عمق تفكيره وتحليله. غير أنه في رأينا، هذه الرواية تلخص جوهر فكر المفكر الجزائري. تنطوي الرواية على تجربة تحول نفسية-اجتماعية لبطل القصة "إبراهيم"، هذا الأخير الذي قضى سنين من عمره في انحراف أخلاقي جعل منه شخصاً منبوذاً اجتماعياً، استيقظ ضميره الإسلامي عند سماع أذان الفجر²، بعد التوتر النفسي الذي أحدثته لديه رؤية نفسه في المنام وهو يحج البيت الحرام. من هذه اللحظة قرر إبراهيم أن يكون مسلماً صالحاً يحظى باحترام محيطه الاجتماعي وأن يصلح ما استطاع من أخطائه السابقة.

إن جوهر فكر مالك بن نبي يبحث عن عوامل تفعيل الدين اجتماعياً، أي عن كيفية جعل الدين سلوك اجتماعي يظهر في تعاملات المسلمين في مجتمعاتهم. وفي هذا الإطار يتساءل عن سبب الفاعلية الاجتماعية للإسلام في المجتمع الإسلامي الأول، أي مجتمع الرسول صلى الله عليه

وسلّم وأصحابه رضي الله عنهم، وعدم فاعلية الاسلام اجتماعياً في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة. وسبب هذه الظاهرة في رأي بن نبي، يكمن في حدوث انفصال لدى المسلم المعاصر بين قيمه الإيمانية وسلوكه الاجتماعي.

- فكيف شخص بن نبي هذا الانفصال؟

-وما هو المخرج الذي قدمه لإعادة جمع القيم الإيمانية والسلوك الاجتماعي للمسلم المعاصر؟

تحاول هذه المقالة الإجابة عن هذين السؤالين.

1. الانفصال بين القيم الإيمانية والقيم الاجتماعية

في تحليله لواقع المجتمعات المسلمة المعاصرة، لاحظ مالك بن نبي أن المسلمين يعيشون في حياتهم اليومية انفصال بين القيم الإيمانية التي يعتقدونها والقيم الاجتماعية التي يمارسونها. فشخصية المسلم أصبحت تبدو وكأنها منشطرة إلى قسمين: قسم إيماني يظهر في المسجد وقسم مادي نفعي يظهر في الشارع. ولاحظ كذلك أن هذا الانفصال يترتب عنه أساساً عدم الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية. سنتناول هاتين الملاحظتين في المبحثين التاليين.

1.1 قيم المسلم المعاصر بين المسجد والشارع

يقدم مالك بن نبي نموذج المفارقة التي يعيشها المسلم داخل المسجد وخارجه كمثال عن الانفصال بين القيم الإيمانية والقيم الاجتماعية لدى المسلم المعاصر. ففي المسجد يتأثر المسلم بالجو الإيماني وقد تذرف عيناه لموعظة الخطيب وترتقي روحه للمثل والمبادئ العليا، لأن المسجد يعيد تشكيل المكان الذي نشأ فيه وعية الديني، فهو يجد في هذا المحيط شخصيته المسلمة بكل ما تحمله من قيم ومبادئ إسلامية. غير أن هذا المسلم عندما يخرج للشارع، يفقد صلته بالجو الإيماني ويجد نفسه في ظروف اجتماعية تقلص من شخصيته المسلمة وتبعث فيه فردانيته بمعناها النفعي. يكتب بن نبي في هذا الصدد مايلي:

وكثيراً ما رأينا في جوانب المسجد أحد المصلين ذائِباً في دموعه، بل لقد نرى الإمام نفسه، وقد خنقته شهقاته وانفعالاته. ومع ذلك فإذا ما قضى هذا المستمع صلاته، بقيت (الحقيقة) التي زلزلت كيانه في المسجد، ولم تتبعه إلى الشارع... ويجد نفسه في نطاق الظروف الاجتماعية التي تمحو (شخصه) وتبعث فيه (الفرد) الخام³.

ترتبط فكرة الفرد الخام عند بن نبي بالصورة التي رسمها "المسلم ما بعد الموحدين"، وهي الصورة النمطية للمسلم الذي يميز آخر مرحلة للدورة الحضارية. هذه الدورة الحضارية التي عرضها بن نبي في مخطوطه المشهور في كتاب "شروط النهضة"، تتمثل باختصار في مرحلة الميلاد والصعود التي تتميز بهيمنة الروح، ومرحلة الأوج التي تتميز بهيمنة العقل، وأخيراً مرحلة الأفول حيث تهيمن الغريزة. هذه المراحل جعل لها مالك بن نبي مقياساً سماه "مقياس القيم النفسية الزمنية"، الذي يدل على التحولات النفسية لدى الفرد عبر الزمن الحضاري أو الدورة الحضارية. فالمرحلة الثلاث مرتبطة أساساً بتحويلات نفسية لدى أفراد المجتمع بحيث يخضع الفرد غرائزه، بفعل الوازع الديني، لنظام من الأفعال المنعكسة يسمى الكبت. فمرحلة الروح هي في نفس الوقت مرحلة كبت الغريزة، ومرحلة العقل توافق المرحلة التي يقل فيها كبت الغريزة، والمرحلة الأخيرة، أي مرحلة الأفول، هي مرحلة إطلاق العنان للغريزة. والخصائص النفسية لهذه المرحلة الأخيرة هي التي توجه الفعل الاجتماعي للمسلم المعاصر الذي يعاني من الانفصال بين قيمه الإيمانية وسلوكه الاجتماعي.

هذا الانفصال بين العنصر الروحي والعنصر الاجتماعي، أو الافتراق بين المبدأ والحياة، أدى إلى انشطار داخل شخصية المسلم التي أصبحت تبدو وكأنها ممزقة لشطرين: شطر ينظم سلوكه في المسجد، وشطر ينظمه في الشارع. يفسر بن نبي التحول في شخصية المسلم عند خروجه للشارع، بسقوطه تحت سطوة قانون العدد. فبدلاً من أن يؤثر هذا المسلم في محيطه الاجتماعي وفقاً لقيمه الإيمانية، نجد أن المحيط الاجتماعي هو الذي يؤثر فيه ويسلبه هذه القيم. ويتساءل بن نبي في هذا الصدد، عما كان سيحدث لو أن المسلمين الأولين اكتفوا بصلاة داخل المسجد دون أن يكون لقيمهم الإيمانية أثر في علاقاتهم الاجتماعية؟ ويحجب أنهم لو فعلوا ذلك ما كانوا ليغيروا وسطهم الجاهلي، بل هذا الوسط هو الذي ربما كان سيغيرهم ويحولهم لمشركين⁴.

كما يرى بن نبي أن الانفصال بين الروحي والاجتماعي داخل الحضارة الإسلامية يعود إلى موقعة صفين سنة 37 للهجرة، حيث بدأ الانفصال أولاً بين العنصر الروحي والعنصر السياسي، ثم توسع مع الزمن ليشمل عناصر الحياة الأخرى، بما فيها العنصر الاجتماعي. فواقعة صفين أخرجت العالم الإسلامي من جو المدينة الذي كان مشحوناً بحدى الروح وبواعث التقدم، إلى جو الفتور الإيماني⁵. وعلى الرغم من أن المسلمين بقوا متمسكين بعقيدتهم التي تغلغلت في قلوبهم، إلا أن صفين أفقدت الحضارة الإسلامية توازنها الأولي، بحيث أصبحت تمثل صورة مشوهة للبناء الأصلي الذي نادى به القرآن وقام على أساس من التوازن بين العقل والروح. وبقاء الأمة الإسلامية متماسكة وفي ريادة الأمم لمدة قرون، لم يكن إلى فضل ما تبقى فيها من قوة الدفعة القرآنية الأولى، وتجسد الفضائل الإسلامية في أشخاص عرفوا بتضحية في سبيل الإسلام والعدل ومداغة الظلم والجور مثل عقبة بن نافع وعمر بن عبد العزيز والامام مالك رضي الله عنهم أجمعين⁶.

ويضع بن نبي واقعة صفين داخل مخطط الدورة الحضارية كنقطة تحول بين مرحلة الروح الصاعدة ومرحلة العقل المستقرة، أين بدأت تظهر بوادر تحرر الغريزة من هيمنة الروح. فتكوين الحضارة في نظر بن نبي يرتبط بشكل جوهري بقوة القيم الفاضلة التي تحركها الروح. وفي عصور الانحطاط تنقلب هذه القيم وينحصر معها الدافع الروحي. يقول بن نبي:

"ولكن أوضاع القيم تنقلب في عصور الانحطاط لتبدو الأمور ذات خطر كبير، فإذا ما حدث هذا الانقلاب انهار البناء الاجتماعي، إذ هو لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، لأن الروح، والروح وحده، هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطت"⁷.

ويرى بن نبي أن أهم ما يترتب عن تراجع الدافع الروحي في مرحلة هيمنة العقل ومرحلة هيمنة الغريزة داخل الدورة الحضارية، هو تراجع الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية.

2.1 الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية

الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية هي مفهوم مركزي في فكر بن نبي، إن لم نقل جوهر فكره كما سبق وأن ذكرنا في المقدمة. وتعني بشكل عام الوظيفة الاجتماعية الإيجابية التي يمكن أن يؤديها الدين من خلال تجسيده في السلوك الاجتماعي للمتدينين. ولا يحصر بن نبي الفكرة الدينية في الديانات السماوية فقط، بل هي تتجاوزها لتشمل كل الأفكار التي تحرك الجانب الروحي والافق الغيبي للإنسان، وتدفعه لتجاوز مادية الحياة والارتقاء إلى القيم الروحانية السامية. يذكر بدران بن الحسن في مقال حول الدور الحضاري للدين في فكر بن نبي، أن:

"ابن نبي لا يرى الفكرة الدينية نسقاً من الأفكار الغيبية فقط، ولا يقصرها على الدين السماوي فقط، بل هي قانون يحكم فكر الإنسان، ويوجه بصره نحو أفق أوسع، ويروض الطاقة الحيوية للإنسان، ويجعلها مخصصة للحضارة. وهي في نظره كل فكرة تقدم معبوداً غيبياً ووعداً أعلى، ابتداءً من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات."⁸

يعطى بن نبي للفكرة الدينية دور مركزي في تكوين الحضارة. فعندما تناول موضوع الناتج الحضاري في كتابه "شروط النهضة"، ذكر أن هذا الناتج هو حصيلة تفاعل الإنسان والتراب والوقت، بحيث أن كل ما تنتجه الحضارة إنما هو ناتج لهذه المكونات الثلاثة. ولكنه يطرح سؤالاً هو: لماذا لا توجد حضارة حيثما وجد الإنسان والتراب والزمن؟ ثم يجيب بأن هناك ما يسمى "مركب الحضارة" أو العامل الذي يمزج بين هذه المكونات الثلاثة حتى تنتج حضارة. وهذا العامل هو الفكرة الدينية. ويكون تأثير الفكرة الدينية على المكونات الثلاثة بتحويل ودفع روح الإنسان للتغيير. وبفعل هذا الدافع الروحي يحول الإنسان بدوره التراب والزمن ليتنجح بمهما حضارة.

يؤكد بن نبي على أن لهذه الفكرة الدينية فاعلية اجتماعية؛ فنجد أنه يذكر مثلاً "الإسلام الاجتماعي" في "شروط النهضة"⁹ و"دور الدين الاجتماعي" في كتاب "وجهة العالم الإسلامي"¹⁰. و"الإسلام الاجتماعي" في نظره هو الإسلام المتحرك في العقول والسلوك، الذي

يغير شخصية المسلم ويجعله يقبل على واجبه ويتحمل أعباء مسؤوليته ليغير ما حوله للأفضل. فهو يكتب:

"إن قوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي موجودة بكل وضوح في الإسلام، ولكن أي إسلام؟ ... الإسلام المتحرك في عقولنا، وسلوكنا، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي. وقوة التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة وفي يدها - ضمانا لذلك - تجربة عمرها ألف عام، وحضارة ولدت على أرض قاحلة، وسط البدو، رجال الفطرة والصحراء."¹¹

ونفس الشيء بالنسبة "لدور الدين الاجتماعي"، فحسب بن نبي، إذا لم يكن الدين مركباً للقيم الاجتماعية، فإن "رسالته التاريخية تنتهي على الأرض"¹². فالإسلام عند المفكر الجزائري ليس مجموعة من التعاليم الجامدة والمنغلقة، إنما هو مصدر للأخلاق الاجتماعية والسلوك الجماعي¹³. وعليه فالمشكلة في نظره لا تكمن في تعليم المسلمين عقيدة هم يملكونها وتعاليم دينية يعرفونها، إنما المهم هو أن نرد إلى هذه العقيدة وهذه التعاليم فاعليتها وتأثيرها الاجتماعي¹⁴.

تظهر أهمية الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية بالنسبة للمجتمع بشكل عام من خلال مصطلح شبكة العلاقات الاجتماعية الذي وظفه بن نبي في كتابه "ميلاد مجتمع" وفي الكتب التي صدرت من بعد، مثل كتاب "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1971" وكتاب "بين الرشد والتهيه، 1978" وكتاب "القضايا الكبرى، 1991". يعبر بن نبي من خلال هذا المصطلح عن المضمون الجوهرى للكيان الاجتماعى، المتمثل فى العلاقات التى تربط أفراد المجتمع وتوجه نشاطاتهم. وشبكة العلاقات الاجتماعية تمثل عند تواجدها لأول مرة حدث ميلاد مجتمع فى التاريخ، فهى النقطة الفاصلة بين ما يسميه بن نبي "المجتمع الطبيعى" الذى تختص به التجمعات البشرية البدائية و"المجتمع التاريخى" الذى يشمل المجتمعات التى سارت فى درب التطور والتحضر¹⁵.

والشكل الذى تأخذه شبكة العلاقات الاجتماعية فى مجتمع ما، يرتبط مباشرة بالمرحلة التى وضعها بن نبي للدورة الحضارية. ففي المرحلة الأولى تكون الشبكة فى أكتف حالاتها وليس فى

أوسع امتدادها، لأن المجتمع نفسه يكون في شكله الجنيني أو في بداية نشأته. ففي هذه الحالة، يحقق المجتمع أرفع درجات الانسجام والاندماج، مثل مجتمع المدينة المنورة في العهد النبوي. وهو ما ينطبق مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" (حديث متفق عليه). وفي المرحلة الثانية تكون الشبكة في حالتها الأكثر امتداداً، ولكن تبدأ في الظهور عليها ثغرات ونقائص في انسجامها، مثل الحركات الانفصالية التي ظهرت في عهد الخلافة العباسية عندما استقل الأغالبة أو الفاطميين بأقاليم تابعة للخلافة. أما في المرحلة الأخيرة، فتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية بسبب هيمنة الغريزة وانتشار الفردية. يضرب مالك بن نبي لهذه المرحلة مثال عصر ملوك الطوائف في الأندلس، وهو الذي يصدق فيه وصف الرسول صلى الله عليه وسلم حال الأمة الإسلامية عند انتكاسها وبأنها تصبح "... غثاء كغشاء السيل" (حديث صحيح)¹⁶.

هنا يتبين كيف أن الفكرة الدينية، بما تحمله من قيم إيمانية تدفعها الروح، هي محفز للعلاقات الاجتماعية عند نشأتها. فالفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية تخلق نظاماً اجتماعياً تتضاعف فيه شبكة العلاقات الاجتماعية لدرجة يقل فيه الفراغ الاجتماعي. وعلى العكس، إذا ضعف الدافع الروحي للفكرة الدينية نقصت كذلك كثافة شبكة العلاقات الاجتماعية، واتسع الفراغ الاجتماعي.

غير أن بن نبي لا يحصر مظهر الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية في درجة انسجام المجتمع فقط، فنسبة الانسجام الاجتماعي هي تعبير عن الحالة الكلية التي يعيشها مجتمع ما في مرحلة معينة من تطوره الحضاري. يمكن ملاحظة الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية في مظاهر عديدة، مثل شعيرة الزكاة. يذكر بن نبي أن الزكاة كانت تمثل الدعامة التي قام عليها النظام الإسلامي بجميع مؤسساته الدينية والحربية والاجتماعية، أما في الوقت الحاضر، فلقد فقدت الزكاة تقريباً كل فاعليتها الاجتماعية¹⁷. ويمكن أن نذكر مظهر آخر لتراجع الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية، وهي الصلاة. يقول الله عز وجل { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } (سورة العنكبوت، الآية 45). والفحشاء والمنكر هما خصلتان اجتماعيتان مذمومتان، فإذا كان المسلم الذي يصلي

يتحلى بهاتين الخصلتين، فإن الفاعلية الاجتماعية للصلاة تختفي وينفصل عنصرها الروحي عن عنصرها الاجتماعي.

لقد نظر بن نبي للعلاقات الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع على أنها "ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني"¹⁸، لأن العلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية السليمة بين الإنسان وأخيه الإنسان. وإذا كان المسلم المعاصر يعيش انفصلا بين قيمه الإيمانية وحياته الاجتماعية، فإن هذه الحالة حسب بن نبي تعبر عن مرض حضاري يجب علاجه من خلال إعادة جمع وتوحيد شخصية المسلم لتصبح الشخصية نفسها بين المسجد والشارع.

2. توجيه الطاقة الحيوية لتحويل القيم الإيمانية إلى سلوك اجتماعي

يرى بن نبي أن المشكلة ليست في وجود غرائز لدى الإنسان، مثل الرغبة في التملك وحب المال والسيادة وإثارة النفس والسعي لتلبية الحاجات البيولوجية... إلخ، ولكن المشكلة تكمن في القدرة على توجيهها لتساهم في النشاط المشترك داخل المجتمع. فهذه الغرائز يطلق عليها بن نبي اسم الطاقة الحيوية، لأن المجتمع نفسه يستمد منها قوته لتحقيق أهدافه وأداء نشاطه. إلا أنها طاقة ذات حدين؛ عندما يطلق العنان لها قد تدمر المجتمع لأنها تفصل الشخص عن انتمائه الاجتماعي وترمي به في فردانيته الضيقة. وعلى العكس، إذا تم إلغاؤها فإننا ندمر المجتمع من خلال شل الدوافع الطبيعية للإنسان وإلغاء جميع الإمكانيات البيولوجية للحياة الاجتماعية¹⁹. لذا يجب على الطاقة الحيوية أن تسير بين هذين الحدين، ولا يمكن تحقيق هذا التوازن إلا من خلال إيجاد فكرة عليها موجهة. يقول بن نبي:

"ولكن الطاقة الحيوية قد تخدم المجتمع ما لم يسبق تكييفها، أعني ما لم تكن خاضعة لنظام دقيق تمليه فكرة عليها، تعيد تنظيم هذه الطاقة، وتعيد توجيهها فتحولها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة في المقام الأول - حيث

تشارك في حفظ النوع- إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان،
حين يسهم في النشاط المشترك لمجتمع ما."

والفكرة العليا عند بن نبي هي نفسها الفكرة الدينية، غير أنها تعني بشكل دقيق الفكرة الدينية في مرحلة الروح عندما تؤدي وظيفة الوصل بين الروحي والاجتماعي. يقدم التاريخ الإسلامي أحسن نموذج لتوجيه الفكرة العليا للطاقة الحيوية، فقد غيرت هذه الفكرة الإنسان الجاهلي وجعلت منه إنساناً متحضراً ومحضراً. يضرب بن نبي مثال إقدام الصحابة رضي الله عنهم على الإنفاق في بناء الدولة الإسلامية الفتية، وقول الصحابي سعد بن عباد:

"يا رسول الله: خذ من أموالنا ما شئت، وما أخذته منها أحب إلينا مما تركت"

فهذه المقولة تبين كيف أن الطاقة الحيوية في صورة غريزة التملك المطبوعة في الإنسان، تتحول بفعل الفكرة العليا إلى طاقة محكومة منظمة وموجهة نحو المهام الاجتماعية.
وكذلك قصة الزانية التي جاءت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليظهرها، فهي جاءت بدافع الروح التي كبتت الغريزة بفعل الفكرة العليا.

يقول بن نبي أن في زمننا المعاصر لم يعد للفكرة الدينية التأثير الذي كان لها في ضمير المسلمين الأولين، ولم يعد لها كذلك قوة التوجيه لسلوكنا وأفكارنا ومشاعرنا. فنحن اليوم بحاجة إلى إعادة توجيه الطاقة الحيوية للمسلم المعاصر، من خلال إعادة صياغة فكرة عليا جديدة. وهذا يستلزم شرطين: الأول هو إعادة تنظيم تعليم القرآن الكريم، والثاني هو تحديد رسالة المسلم الجديدة في العالم.

1.2 إعادة تنظيم تعليم القرآن الكريم

الغاية من إعادة تنظيم تعليم القرآن الكريم هي الوصول بحقيقة القرآن إلى ضمير المسلم كما لو كانت جديدة، نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير. وسبق أن ذكرنا أن بن نبي لا ينظر للإسلام على أنه مجموعة من التعاليم الجامدة والمنغلقة، بل يجب أن يكون مصدراً للأخلاق الاجتماعية والسلوك الجماعي. وهذه هي رسالة الأنبياء الحقيقية، أي تقديم الدين للنفوس الفطرية على أنه قوة أخلاقية وليس مجموعة من الأفكار المجردة²⁰.

هنا تجدر الإشارة إلى التمييز الذي يضعه بن نبي بين التجديد والتجدد. فالأول يتصل بالفكر وحده، ويعتبره بن نبي إصلاحاً ظاهرياً فقط. أما التجدد فهو يمس نفس المسلم وهو جوهر الحضارة²¹. انطلاقاً من هذا التمييز، ينتقد بن نبي بعض الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي من حيث أنها بقيت محدودة في نطاق الموضوعات القديمة ولم تهتم بعلم لم يوضع له اسم بعد حسب بن نبي، يسميه هذا الأخير علم (تجديد الصلة بالله)²². يقول بن نبي:

"ففي كل هذه الحالات، لم تكن الفكرة القرآنية لتمس مباشرة ضمير إنسان ما بعد الموحدين أو طبيعته، لا تمس مجال حياته وجوانب فكره ومناحي سلوكه، فهي بذلك أداة (للتجديد) أكثر من أن تكون إلزاماً (بالتجدد)، وهذا ولا شك أمر مهم، إذ كان على أية حال أساس النهضة الراهنة، فالتجديد في رأينا هو التفسير النفسي لما أطلقنا عليه لفظة (التكديس)، ولكنه يعد أيضاً نوعاً من الشرط المادي الضروري لعملية (التجدد)؛ أعني تجدد النفس الذي هو جوهر النهضة، على حين يعد التجديد - الذي يتصل بالفكر وحده - إصلاحاً ظاهرياً²³."

فالتجديد يحمل طابع التكديس لأنه لا يقدم لنا شخصاً جديداً، إنما نفس الشخص بضعفه الأخلاقي والفكري، أي مسلم ما بعد الموحدين، ولكن بصورة مختلفة ومع احتياجات جديدة. والتجدد هو بناء لشخص جديد يقوم على أسس وقواعد راسخة داخل الروح التي هي بدورها

راسخة في الفكرة العليا.²⁴ وعليه، فتدريس القرآن الكريم يجب أن يهتم أولاً بترسيخ الصلة بالله من خلال إيصال التعاليم القرآنية إلى أعماق ضمير المسلم.

2.2 تحديد رسالة المسلم الجديدة في العالم

رسالة المسلم الجديدة تعبر عن المسوغات التي يمكن أن تفتح للمسلم أفقاً جديداً له وللإنسانية. وهذه الرسالة، إذا استوفت شروطها، ستدفع بروح المسلم للعمل والتغيير. يرى بن نبي أن العالم الإسلامي، بعد أن قدم للإنسانية نتاجه العقلي من علوم وتشريع، فقد مسوغاته التي كانت تدفع طاقاته الاجتماعية وانطفأت شعلتها الدافعة للضمير واليد والعقل، ولم يعد للحياة دوافع. تعبر الحكمة السلبية المعروفة في المغرب الإسلامي "نأكل القوة ونتنظر الموت" عن فقدان المسوغات داخل المجتمعات الإسلامية، والتي لم تكن الحركات الإصلاحية التي ظهرت فيها إلا تعبير عن هذه الأزمة ومحاولات لإيجاد دوافع جديدة تشحذ الهمم.

وفقدان المسوغات يشهده كذلك المجتمع الغربي حالياً، فبعد أن بلغ هذا المجتمع أقصى فاعليته في القرن التاسع عشر عندما كانت أوروبا تؤمن بالتقدم العلمي وبال حضارة وب الاستعمار رسالة حضارية، تراجعت ثقفتها في مسوغاتها مع الحرب العالمية الأولى لأن التفوق الحضاري للغرب لم يعد شيئاً مسلماً به. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية لتحطم نهائياً قداسة المسوغات الأوروبية، حيث ظهر أن التقدم العلمي الذي أحرزه الغرب، خاصتاً مع القنبلة الذرية، يمثل تهديداً للإنسانية بعدما كان ينظر إليه في صورة خلاص للإنسانية. والفرد الغربي يعيش اليوم حالة من الحيرة والتيه والفراغ الروحي، بسبب فقدان المسوغات التي تدفع بالهمم وتبعث لأسمى الغايات.

يرى بن نبي أن الإنسانية، بكلا شقيها المتطور والسائر نحو النمو، تعيش حالة من الطوارئ بسبب فقدان المسوغات. أمام هذه الحالة، يحدد بن نبي رسالة المسلم الجديدة في العالم في نقطتين: الأولى هي إنقاذ نفسه، والثانية هي إنقاذ الآخرين²⁵. هذه الرسالة هي التي ستدخل المسلم من جديد كفاعل في التاريخ البشري. ولينقذ المسلم نفسه يجب عليه أن يعالجها من علل الانتكاس الحضاري بالرجوع إلى حقيقة الإسلام كسلوك اجتماعي ومنهج حياة. أما إنقاذ الآخرين فيكمن

في تقديم رسالة الإسلام للعالم. ويجب على المسلم أن يقتنع هو أولاً بأنه يحمل رسالة للآخرين
ليستطيع إقناعهم بها، كما يضع بن نبي شروطاً ثلاثة عملية ليبلغ المسلم رسالته، وهي:

- أن يعرف نفسه.

- أن يعرف الآخرين، أي يعرف ما بنفوسهم ليتصرف معهم بحكمة ويبلغهم الإسلام بحكمة.
وهذا يستلزم ألا يتعالى عليهم وألا يزهد فيهم بحكم أنه سيدخل الجنة وأنه سيكرم يوم الآخرة.

- أن يعرف الآخرين بنفسه، لا بصورة مسلم ما بعد الموحدين بما تحمله من فقر وجهل وقابلية
للاستعمار، وإنما بصورة تتجسد فيها القيم الإسلامية كما كانت تشرق على وجه المسلم وتجعله في
نظر الآخرين أجمل صورة إنسانية في التاريخ.

هذه الشروط، بالإضافة إلى الشرط المرتبط بإعادة تنظيم تعليم القرآن الكريم، يمكن أن تخلق
فكرة عليا جديدة توجه طاقات المسلم الحيوية. وحينها تكون المجتمعات الإسلامية تسير نحو تحقيق
الظروف المناسبة التي ستبعثها من جديد لأداء واجبها اتجاه البشرية ولتحقيق الآية الكريمة { هو
الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } (سورة التوبة،
الآية 33)²⁶. ولم يغفل بن نبي عن أَنَّ هَذَا المشروع لَا يَقِفْ عَلَى جَهْدِ الْأَفْرَادِ فَقَطْ، أَوْ حَتَّى
الْجَمَاعَاتِ، بَلْ يَتَعَدَاهُ لِيَكُونَ مشروع الحكومات الإسلامية. فهذه الأخير مطالبة بالأخذ على
عاتقها توجيه طاقات المسلمين وشحذ همهم بإسم الفكرة العليا، من أجل استرجاع الأمة المسلمة
لدورها الحضاري.

الخاتمة :

في هذه المقالة حاولنا إبراز كيفية تحليل مالك بن نبي لمسألة مركزية وخطيرة بالنسبة
للمجتمعات الإسلامية، وهي الانفصال بين القيم الإيمانية والسلوك الاجتماعي للأفراد داخل هذه
المجتمعات. فحسب المفكر الإسلامي، يرجع هذا الانفصال لأسباب تاريخية تراكمت لتصل
للصورة النمطية "لمسلم ما بعد الموحدين" الذي فقد فاعليته في مجتمعه وفقد أيضاً مسوغات
وجوده في هذا العالم.

ويرى بن نبي أنه يمكن للمسلمين اليوم أن يسترجعوا دورهم الحضاري ومكانتهم الريادية بين الأمم إذا حققوا شروط معينة. وهذا التحول ليس بمستحيل، على الرغم من الفارق الحضاري بينهم وبين الأمم المتطورة. لأن ما حققه المسلمون الأولون من انتصار على حضارتي فارس والروم، مع أنهم كانوا بدوًا، يمكن أن يحققه المسلمون اليوم إذا استوفوا شروط التمكين والنصر.

أول شرط هو توجيه طاقات المسلمين الحيوية بفعل فكرة عليا. وإيجاد فكرة عليا يشترط بدوره، من جهة، العودة لفهم القرآن الكريم كخطاب روحي يحرك ضمير المسلم قبل كل شيء، ومن جهة أخرى رسم أفق تبليغ رسالة الإسلام للعالم لشحنهم المسلمين. إلا أن تبليغ رسالة الإسلام للعالمين يستوجب على المسلمين معالجة عللهم الحضارية أولاً، ثم تقديم صورة المسلم في أحسن شكل، أو على الأقل في شكل لا يقل حسناً عن صورة الفرد في المجتمعات المتحضرة.

إذا تأملنا هذه الشروط التي وضعها بن نبي لتستعيد الأمة الإسلامية دورها الحضاري، نلاحظ أنها تتناول أساساً مسألة ربط القيم الإيمانية التي يؤمن بها المسلم بسلوكه الاجتماعي. هذه المسألة، وإن تناولها بن نبي بشيء من التحليل، إلا أنها مسألة مركزية بالنسبة للمجتمعات الإسلامية كما ذكرنا، تستدعي إهتمام المفكرين والباحثين والجامعيين من كل الأقطار الإسلامية لزيادة توصيف الحالة وتقديم الحلول لها.

المراجع:

1. ابن نبي، مالك، ميلاد مجتمع، ط3، الجزائر: دار الفكر، 1986.
2. ابن نبي، مالك، شروط النهضة، ط3، دمشق: دار الفكر، 1986.
3. ابن نبي، مالك، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ط1، دمشق: دار الفكر، 1991.
4. ابن نبي، مالك، القضايا الكبرى، ط2، دمشق: دار الفكر، 2000.
5. ابن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، ط5، دمشق: دار الفكر، 2000.
6. ابن نبي، مالك، بين الرشاد والتهيه، ط2، دمشق: دار الفكر، 2002.
7. ابن نبي، مالك، وجهة العالم الإسلامي، ط2، دمشق: دار الفكر، 2002.

8. ابن نبي، مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دمشق: دار الفكر، 2002.
9. ابن نبي، مالك، لبيك حج الفقراء، ط1، الجزائر: دار الوعي، 2013.
10. بدران بن لحسن، الدور الحضاري للدين : دراسة تحليلية لمفهوم و دور الفكرة الدينية المركبة عند مالك بن نبي، مجلة جيل الدراسات الأدبية و الفكرية، العدد:10، 2015.

المراجع بالفرنسية

11. Bennabi, Malek, Mondialisme, Alger, éditions Dar El Hadhara, 2003.
12. Seniguer, Haouès, La civilisation islamique et l'humanisme arabo-musulman : le regard de Malek Bennabi, Confluences Méditerranée, numéro :89, 2014.

الهوامش:

1. انظر مقدمة عبد العزيز خالدي لكتاب "شروط النهضة"، ص 7. الطبعة المعتمدة في هذه المداخلة.
2. ابن نبي، مالك (2013). لبيك حج الفقراء، ط1، الجزائر: دار الوعي، ص 50.
3. ابن نبي، مالك (1986). ميلاد مجتمع، ط3، الجزائر: دار الفكر، ص 105 و 106.
4. نفس المرجع، ص 113.
5. ابن نبي، مالك (1986). شروط النهضة، ط3، دمشق: دار الفكر، ص 47.
6. ابن نبي، مالك (2002). وجهة العالم الإسلامي، ط2، دمشق: دار الفكر، ص 30.
7. نفس المرجع، ص 30.
8. بدران بن لحسن (2015)، الدور الحضاري للدين : دراسة تحليلية لمفهوم و دور الفكرة الدينية المركبة عند مالك بن نبي، مجلة جيل الدراسات الأدبية و الفكرية، العدد:10، ص 127.
9. ابن نبي، مالك (1986). شروط النهضة، ص 90.
10. ابن نبي، مالك (2002). وجهة العالم الإسلامي، ص 32.
11. ابن نبي، مالك (1986). شروط النهضة، ص 90.
12. ابن نبي، مالك (2002). وجهة العالم الإسلامي، ص 32.

. Seniguer, Haouès (2014). La civilisation islamique et l'humanisme arabo-musulman : le regard de Malek Bennabi, *Confluences Méditerranée*, numéro 89, p 204.

14. ابن نبي، مالك (2002). وجهة العالم الإسلامي، ص 54.
15. ابن نبي، مالك (1986). ميلاد مجتمع، ص 14.
16. رواه أبو داود وأحمد. جود إسناده الميثمي في (مجمع الزوائد)، وقال ابن باز في (مجموع الفتاوى): إسناده حسن، وصححه الألباني في (صحيح سنن أبي داود)
17. ابن نبي، مالك (1986). ميلاد مجتمع، ص 104.
18. نفس المرجع، ص 56.
19. ابن نبي، مالك (2000). مشكلة الثقافة، ط5، دمشق: دار الفكر، ص 50.
20. ابن نبي، مالك (2002). وجهة العالم الإسلامي، ص 55.
21. نفس المرجع، ص 157.
22. نفس المرجع، ص 54.
23. نفس المرجع، ص 157.
24. Bennabi, Malek (2003). Mondialisme, Alger : éditions Dar El Hadhara, p. 61.
25. ابن نبي، مالك (1991). دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ط1، دمشق: دار الفكر، ص 48.
26. نفس المرجع، ص 36.

